

2184
مكتبة دار العروبة للدراسات الإسلامية

عربي عن الأردنية الأستاذ مسعود النسيدي
معتمة دار العروبة للدعوة الإسلامية ، باكستان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجهاد في سبيل الله

لقد جرت عادة الافرنج أن يعثروا عن كلمة « الجهاد »
بالحرب المقدسة (Holy War) إذا أرادوا ترجمتها بلغاتهم .
وقد فسروها تفسيراً منكراً تفننوا فيه ، وألبسوها ثوباً فضفاضاً
من المعاني المموهة الملفقة ؛ وقد بلغ الأمر في ذلك أن
أصبحت كلمة « الجهاد » عندهم عبارة عن شراسة الطبع والخلق
والهمجية وسفك الدماء . وقد كان من لباقتهم وسحر بيانهم
وتشويهم لوجوه الحقائق الناصعة أنه كلما قرع سمع الناس
صوت هذه الكلمة (الجهاد) ، تمثلت أمام أعينهم صورة
مواكب من الهمج المحتشدة ، مصلية سيوفها متقدة صدورها
بنار التعصب والغضب ، متطايراً من عيونها شرار الفتك والنهب
عالية أصواتها بهتاف « الله أكبر » زاحفة إلى الأمام ، ما إن
رأت كافراً حتى أمسكت بخناقه وجعلته بين أمرين : إما أن
يقول « لا إله إلا الله » فينجو بنفسه ، وإما أن يضرب عنقه ،
فتشخب أوداجه دماً .

ولقد رسم الدهاة هذه الصورة ، بلباقة فائقة وتفهمنا
فيها بريشه المتفنن المبدع ؛ وكان من دعاتهم ولباقهم في هذا الفن
أن صبغوها بصبغ من النجيع الأحمر وكتبوا تحتها :

« هذه الصورة مرآة لما كان بسلف هذه الامة من شره إلى
سفك الدماء ، وجشع إلى الفتك بالآبرياء » .

والعجب ، كل العجب ، أن الذين رسموا لنا هذه الصورة
وقاموا بما كان لهم من حظ موفور في إبرازها وعرضها على
الأنظار ، هم هم الذين مضت عليهم قرون وأجيال يتقاتلون
ويتناحرون في ما بينهم إرضاء لشهواتهم الدنيئة ، وإطفاء
لأوار مطامعهم الأشعيية . وتلك هي حربهم الملعونة غير
المقدسة (Un-Holy War) التي أثاروها على الأمم المستضعفة
في مشارق الأرض ومغاربها ، وجاسوا خلال ديارهم يبحثون
عن أسواق لبضائعهم وأراض لمستعمراتهم التي يريدون أن
يستعمروها ويستبدوا بمنابع ثروتها دون أصحابها الشرعيين ؛
 ويفتشون عن المناجم والمعادن وعمما تغلثه أرض الله الواسعة
من الحاصلات التي يمكن أن تكون غذاء لبطن مصانئهم

ومعاملهم ؛ ييخثون عن كل ذلك وقلوبهم كلها جشع وشره إلى المال والجاه ، وبين أيديهم الدبابات المدججة وفوق رموسهم الطائرات المحلقة في جو السماء ، ووراء ظهورهم مئات الألوف من العساكر المدربة ، يقطعون على البلاد سبل رزقها ، وعلى أُماليها الوادعين طريقهم إلى الحياة الكريمة ، يريدون بذلك أن يُهيئوا وقوداً لنيران مطاعمهم الفاحشة التي لا تزيدها الأيام إلا التهاباً واضطراباً . فلم تكن حروبهم في « سبيل الله » وإنما كانت في سبيل شهواتهم الدنيئة وأهوائهم الذميمة ومطامعهم الأشعبية . وإن تعجب فعجب حملاتهم وغاراتهم على شعوب وادعة آمنة لم يكن من ذنبها إلا أن الله قد أنعم عليها بمعادن وكنوز في أرضها ، أو أنها كانت تملك تربة خصيبة تغل أنواعاً من الحبوب وخيرات الأرض . وإن لم يكن هذا ولا ذاك ، فبحسبها ذنباً أنها يمكن أن تكون سوقاً لبضائعهم نافقة ، أو مستعمرة لبني جلدتهم الذين ضاقت عليهم أرضهم فلفظتهم . وأدهى من كل ذلك وأمرٌ أنهم كثيراً ما يخيرون على بلاد آمنة مطمئنة بمجرد أنها تقع في طريقهم إلى بلاد قد

استولوا عليها من قبل أو يريدون الآن أن يستولوا عليها
ويأخذوا زمام أمرها بأيديهم .

هذه هي حال الذين يصموننا بالغزو والقتال — والذي
سبق لنا من أعمال الفتوح والحروب قد دمضت عليه أحقاب
طويلة — أما أعمالهم الخزية هذه ، فلا يزالون يقتطفونها ليل
نهار بمرأى ومسمع من العالم المتحضر المتمدن . وأى بلاد
الله ، يا ترى ، قد سلبت من عدوانهم ، وما تخضبت أراضيها
بدماء أبنائها الزكية ؟ وأية هذه القارات العظيمة من آسيا
وأفريقية وأمريكا ما ذقت وبال حروبهم الملعونة ؟ لكن
هؤلاء الدهاة رسموا صورتنا بلباقة منكرة ، وأبدأوا وأعادوا
في عرضها بشكل هائل بشع قد سحب ذيل النسيان على
صورتهم الدميمة ، حتى لا يكاد يذكرها أحد بجانب الصورة
المنكرة التي صوروا بها تاريخنا وماثر أسلافنا . فما أعظم
دهاءهم وما أبرعهم في التزوير والتمويه . أما سذاجتنا وبله
رجالنا فحدثت عن البحر ولا خرج . وأى بله أعظم من
اغترارنا بالصورة المنكرة التي صوروا بها ماثرنا حتى كدنا

تؤمن بصحتها ومطابقتها للحقيقة ، وما دار بخلدنا أن ننظر
 إلى الأيدي الأثيمة التي عملت عملها في رسم هذه الصورة
 المزورة ، وأن نبحت عن الأقلام الخفية التي تفننت في تمويهها
 وزخرفتها . وقد بلغ من اغترارنا بتزويرهم وانخداعنا بتلك
 الصورة المموهة أن اعترانا الخجل والندامة ، ومعدنا نعتذر إلى
 القوم . نبذل كلام الله ونحرف الكلم عن مواضعه ونقول لهم
 « ما انا وللقتال ، أيها السادة ؟ ! إنما نحن دعاة مبشرون ندعو
 إلى دين الله ، دين الأمن والسلام والدعة ، بالحكمة والموعظة
 الحسنة ؛ نبليغ كلام الله تبليغ الرهبان وال دراويش والصوفية ،
 ونُجادل من يُعارضنا بالتى هى أحسن بالخطب والرسائل
 والمقالات ، حتى يؤمن من يؤمن بدعوتنا عن بينة . هذه هى
 دعوتنا لا تزيد ولا تنقص . أما السيف والقتال به فعاذ الله
 أن نمثّ اليه بصلّة ؛ اللهم إلا أن يقال إننا ، بما دافعنا عن
 أنفسنا حينما اعتدى علينا أحد . ذلك أيضاً قد مضت عليه
 سنون وأعوام طويلة . أما اليوم فقد أظهرنا براءتنا من ذلك
 أيضاً . ومن أجل ذلك نسخنا الجهاد « رسمياً » ، ذلك الجهاد

الممقوت الذى يعمل فيه السيف عمله ، حتى لا يَـسْـقَـلِقَ بالكم
ولا يُـقْـضَ عليكم المضجع . فما « الجهاد » اليوم إلا مواصلة
الجهود باللسان والقلم ، وليس لنا إلا أن نلعب بمرهفات
الأسنة وأسنة الأقلام . أما المدافع والدبابات والرشاشات
وغيرها من آلات الحرب واستخدامها فأتى أحق بها
وأهلها (١) .

هذه مكابدهم السياسية التى كشفنا لك القناع عن بعضها فى
ما تقدم . لكننا إذاً نعلمنا النظر فى المسألة من الوجهة العلمية
ودققنا النظر فى الأسباب التى أشكل لأجلها استجلاء حقيقة

Ref Library

(١) ومن شواهد التاريخ المعاصر على صدق هذا الوصف الذى أورد
الأستاذ المودودي رسالة كانت صحيفه (الفتح) قد تلقتها من مراسلها فى الجزائر
فى أوائل سنة ١٣٥٠ ونشرتها فى صدر عددها ٢٥٧ عن زيارة بعض الضباط
الفرنسيين لشيخ السجادة التجانية فى بلدة عين ماضى فرحب بهم وأعلن الشك
لفرنسا على أنها حملت عن مسلمى الجزائر ما كان يثقل كواهلهم من أعباء الملا
والسيادة ! فشيخ السجادة التجانية يرى أن الملك والسيادة لا يليق بأمثاله .
عبيد الأفرنج أن ينهضوا بأعبائهما ، وأن المستعمرين أحق بذلك ، وه
يشكرهم على قيامهم عن المسلمين بهذا العبء وما يستلزمه من جهاد وكف

« الجهاد في سبيل الله » واستكناه سرها على المسلمين أنفسهم ،
فضلاً عن غير المسلمين ، لاح لنا أن مرجع هذا الخطأ الى
أمرين مهمين لم يسبروا غورهما ولم يدركوا مغزاهما على وجه
الحقيقة : —

فالأول أنهم ظنوا الاسلام نحلة (Religion) بالمعنى الذى
تطلق عليه كلمة « النحلة » عامة .

والثانى أنهم حسبوا المسلمين أمة (Nation) بالمعنى الذى
تستعمل فيه هذه الكلمة فى عامة الأحوال .

فالحقيقة أن خطأ القوم فى فهم هذين الأمرين المهمين
وعدم استجلائهم لوجه الحق فى هاتين المسألتين الأساسيتين
هو الذى شوه وجه الحقيقة الناصعة فى هذا الشأن وعاقهم عن
إدراك مغزى « الجهاد » الاسلامى ؛ بل الحق — والحق أحق
أن يتبع — أن هذا الخطأ الأساسى فى فهم هاتين المسألتين قد
أرخى سدوله على حقيقة الدين الاسلامى بأسره وقلب الأمر
ظهوراً لبطن ، وجعل موقف المسلمين من العالم ومسايله المتجددة
ومشاكله المنشعبة حرجاً ضيقاً لا يرضاه الاسلام وتعاليمه الخالدة

فالنحلة ^(١) (Religion) ، على حسب الاصطلاح الشائع
عندهم ، لا يُراد بها إلا مجموعة من العقائد والعبادات والشعائر .
ولا جرم ان النحلة بهذا المعنى لا تعدو أن تكون مسألة
شخصية ، فأنت حر فيما تختاره من العقيدة ، ولك الخيار في أن
تعبد بأى طريق شئت من رضىت به رباً لنفسك . وإن أبت
نفسك إلا التمسك بهذه النحلة والاتصار لعقيدتها فلك أن
تحترق الأرض وتجوب بلاد الله الشاسعة داعياً الى عقيدتك ،
مدافعاً عن كيانه بالحجج والبراهين . مجادلاً من يخالفونك فيها
بمرهفات الألسنة وأسنة الأقلام . أما السيف وآلات
الحرب والقتال ، فما لك ولها في هذا الشأن ؟ أتريد أن تكره
الناس حتى يكونوا مؤمنين بعقيدتك ؟ وإن كان الاسلام نحلة
(Religion) كنحل العالم ، على حسب الاصطلاح الشائع عندهم
كما يزعمون ، فالظاهر أنه لا شأن فيها للسيف وأدوات الحرب
كما قالوا . ولو كان موقف الاسلام في نفس الأمر كما زعموا

(١) وردت في الاصل كلمة « مذهب » التي ترادفها لفظة Religion في
الانكليزية

ووصفوا لما كان فيه مساع للجهاد ولم يكن من الاسلام في
ورد ولا صدر ، لكن الامر على خلاف ذلك ، كما سوف
تعرفه في ما يأتى من البيان . وكذلك كلمة الامة (Nation) فما
هى إلا عبارة عن طائفة من الناس متوافقة فيما بينها
(Homogeneous group of men) اجتمعت وتألفت وامتازت
من بين طوائف أخرى لا شتر اكها في بعض الامور الجوهرية .
فالطائفة التى تكون « أمة » بهذا المعنى لا يبعثها على استخدام
السيف إلا امران : إما أن يعتدى عليها أحدٌ ويريد أن يسلبها
حقوقها المعروفة ، وإما أن تحمل هى بنفسها على طائفة أخرى
لتنزع من يدها حقوقها المعروفة . ففي الصورة الاولى منها ، لها
سعة فى الامر ، وهى لا تخلو من وازع خلقى يُسلجها الى استخدام
السيف والبطش بمن اعتدى عليها ، وإن كان بعض المتشدقين
بالامن والسلام لا يبيع ذلك أيضاً . أما الصورة الثانية — أى
الاعتداء على حقوق غيرها والاغارة على الشعوب والامم من
غير ما سبب — فلا يُدبِحُها غير بعض الجبابرة المسيطرين
(Dictators) ، حتى ان ساسة الدول الكبرى كبريطانيا وأمريكا
أيضاً لا يقدرّون أن يجترؤا على القول بجوازها .

حقيقة الجهاد

فان كان الاسلام نحلة كالنحل الأخرى والمسلمون أمة كغيرهم من أمم العالم ، فلا جرم أن « الجهاد » الاسلامى يفقد بذلك جميع المزايا والخصائص التى جعلته رأس العبادات ودرّة تاجها . لكن الحقيقة أن الاسلام ليس بنحلة كالنحل الرائجة ، وان المسلمين ليسوا بامة كأمم العالم ، بل الأمر أن الاسلام فكرة انقلابية (Revolutionary) ومنهاج انقلابى يريد أن يهدم نظام العالم الاجتماعى بأسره ويأتى على بنيانه من القواعد ويؤسس بنيانه من جديد حسب فكرته ومنهاجه العملى . ومن هناك تعرف أن لفظ « المسلم » وصف للحزب الانقلابى العالمى (International Revolutionary Party) الذى يكونه الاسلام وينظم صفوفه ليكون أداة فى إحداث ذلك البرنامج الانقلابى الذى يرمى اليه الاسلام ويطمح إليه يبصره ، والجهاد عبارة عن الكفاح الانقلابى (Revolutionary Struggle) ، وعن تلك الحركة الدائبة المستمرة التى يقام بها للوصول الى هذه الغاية وإدراك هذا المبتغى .

والاسلام يتجنب الكلمات الشائعة في دعوته وبيان منهاجه
العملي ، شأن غيره من الدعوات الفكرية والمناهج الانتقالية ،
بل يؤثر لذلك لغة من المصطلحات (Terminology) خاصة ،
لئلا يقع الالتباس بين دعوته وما إليها من الأفكار
والتصورات ، وبين الأفكار والتصورات الشائعة الراجحة .
« فالجهاد » أيضاً من الكلمات التي اصطلح عليها الاسلام لأداء
مهمته وتبيين تفاصيل دعوته . فانت ترى أن الاسلام قد
تجنب لفظة « الحرب » وغيرها من الكلمات التي تؤدي معنى
القتال (War) في اللغة العربية واستبدل بها كلمة « الجهاد » التي
تؤدي معنى « بذل الجهد والسعي » ويرادفها كلمة (Struggle)
في اللغة الانكليزية ، غير أن لفظة « الجهاد » أبلغ منها تأثيراً
وأكثر إحاطة بالمعنى المقصود . فما الذي أفضى بالاسلام الى أن
يختار هذه الكلمة الجديدة ، صارفاً بوجهه عن الكلمات القديمة
الراجحة ؟ والذي أراه وأجزم به أنه ليس لذلك إلا سبب واحد
وهو أن لفظة « الحرب » (War) كانت ولا تزال تطلق على
القتال الذي يُشَبَّهُ لهيبه وتستعر ناره بين الرجال والأحزاب

والشعوب لما رُب شخصية وأغراض ذاتية . والغايات التي ترمى إليها أمثال هذه الحروب لا تعدو أن تكون مجرد أغراض شخصية أو اجتماعية ، لا تكون فيها رائحة لفكرة أو انتصار لمبدأ . وبما أن القتال المشروع في الاسلام ليس من قبيل هذه الحروب ، فلم يكن له بدٌّ من ترك هذه اللفظة (الحرب) البتة . لأن الاسلام لا ينظر الى مصلحة أمة دون أمة ، ولا يقصد الى النهوض بتعب دون شعب ، وكذلك لا يهتم في قليل ولا كثير أن تملك الأرض وتستولى عليها هذه المملكة أو تلك ، وإنما تهمه سعادة البشر وفلاحهم . وله فكرة خاصة ومنهاج عملي مختار لسعادة المجتمع البشرى والصعود به الى معارج الفلاح . فكل حكومة مؤسّسة على فكرة غير هذه الفكرة ومنهاج غير هذا المنهاج ، يقاومها الاسلام ، ويريد أن يقضى عليها قضاء مبرماً ، ولا يعنيه في نبيء بهذا الصدد أمر البلاد التي قامت فيها تلك الحكومة غير المرضية أو الامة التي ينتمى اليها القائمون بأمرها . فان غايته استعلاء فكرته . وتعميم منهاجه ، وإقامة الحكومات وتوطيد دعائمها على أساس هذه الفكرة وهذا

المنهاج ، بصرف النظر عن يحمل لواء الحق والعدل بيده ومن
 تنكس بذلك راية عدوانه وفساده . والاسلام لا يتطلب
 الأرض ولا يقتنع بقطعة أو جزء منها ، وإنما يتطلب ويستدعي
 المعمورة الأرضية كلها ، ولا يتطلبها لتستولى عليها وتستبد بمنابع
 ثروتها أمة بعينها ، بعد ما تنزع من أمة أو أمم شتى ، بل يتطلبها
 الاسلام ويستدعيها ليتمتع الجنس البشري بأجمعه بفكرة السعادة
 البشرية ومنهاجها العملي الذين أكرمهم الله بهما وفضله بهما على
 سائر الأديان والشرائع . وتحقيقاً لهذه البغية السامية يريد
 الاسلام أن يستخدم جميع القوى والوسائل التي يمكن
 استخدامها لاجداث انقلاب عام شامل يبذل الجهد المستطاع
 للوصول الى هذه الغاية العظمى ، ويسمى ' هذا الكفاح المستمر
 واستنفاد القوى البالغ واستخدام شتى الوسائل المستطاعة
 ' بالجهاد . فالجهاد كلمة جامعة تشتمل جميع أنواع السعى
 وبذل الجهد . واذا عرفت هذا فلا تعجب إذا قلت : إن تغيير
 وجهات أنظار الناس وتبديل ميولهم ونزعاتهم وإحداث انقلاب
 عقلي وفكري بواسطة مرهفات الأقلام نوع من أنواع

« الجهاد » ، كما أن القضاء على نظم الحياة العتيقة الجائرة بحد
السيوف وتأسيس نظام جديد على قواعد العدل والنصفة أيضاً
من أصناف الجهاد . وكذلك بذل الاموال وتحمل المشاق
ومكابدة الشدائد أيضاً فصول وأبواب مهمة من كتاب «الجهاد»
العظيم .

في سبيل الله

لكن «الجهاد» الاسلامي ليس بجهاد لا غاية له ، وإنما
هو الجهاد في سبيل الله ؛ وقد لزمه هذا الشرط لا ينفك عنه
أبداً . وذلك أيضاً من الكلمات التي اصطلح عليها الاسلام لتبين
فكرته وإيضاح تعاليمه ، كما أشرت اليه آنفاً . وقد انخدع كثير
من الناس بمدلوله اللغوي الظاهر وحسبوا أن إخضاع الناس
لعقيدة الاسلام وإكرامهم على قبولها هو «الجهاد» في سبيل
الله . وذلك أن ضيق صدورهم وعدم اتساع مجال تفكيرهم
يعوقهم عن أن يَسْمُوا بأنفسهم فوق ذلك ويخلقوا في سماء
أوسع من سمائهم . لكن الحق أن «سبيل الله» في المصطلح

الاسلامى أرحب وأوسع بكثير مما يتصورون ، وأسعى غاية وأبعد مراماً مما يظنون به ويزعمون . فكل عمل تقوم به للمصالح العامة وسعادة المجتمع ابتغاءاً لمرضاة الله ، لا تريد به منفماً أو مكسباً فى الحياة العاجلة ، فهو « فى سبيل الله » فى نظر الاسلام . فاذا أنفقت مما رزقك الله فى وجوه الخير والبر ، تريد أن تعود عليك هذه المبرّة ' بشيء من المنافع الأديّة أو المادية فى هذه الدار الفانية ، فليس ذلك من سبيل الله فى شيء . وأما إذا أسديت إلى مسكين أو معوز معروفاً لا تريد به إلا ابتغاء وجه ربك ، فلا ريب أن ذلك عمل يُعَدُّ « فى سبيل الله » . فهذا المصطلح الاسلامى الخاص — أى المصطلح « فى سبيل الله » — يطلق على الأعمال التى تُؤدّى خالصة لوجه الله من غير أن يشوبها شيء من شوائب الأهواء والشهوات ، يؤديها المرء معتقداً أن عمل الانسان لسعادة إخوانه ينيله مرضاة الله تعالى ، وأن غاية ما يتمناه الرجل من هذه الحياة الدنيا وما يقوم به فيها من عمل هو ابتغاء وجه ربه الأعلى ، لا غير .

فما قيد التصارع ، الجهاد ، بهذا الشرط إلا للدلالة على هذا المعنى . فالذى يتطلبه الاسلام أنه إذا قام رجل أو جماعة من المسلمين ، تبذل جهودهما وتسخر مساعيها للقضاء على النظم البالية الباطلة وتكوين نظام جديد حسب الفكرة الاسلامية فعليها أن تكون مجردة عن كل غرض ، مبرأة من كل هوى أو نزعة شخصية ، لا تقصد من وراء جهودها وما تبذل في سبيل غايتها من النفوس والنفائس إلا تأسيس نظام عادل يقوم بالقسط والحق بين الناس ، ولا تتبغى بها بدلاً في هذه الحياة ؛ ولا يكون من هم الانسان خلال هذا الكفاح المستمر والجهاد المتواصل لاعلاء كلمة الله أن ينال جاهاً وشرفاً أو سمعة وحسن أحواله ، ولا يخطر بباله أثناء هذه الجهود البالغة والمساعى الغالية أن يسمو بنفسه وعشيرته ويستبد بزمam الامر ويتبوأ منصب الطواغيت الفجرة بعدما يعزل غيره من الجبابرة المستكبرين عن مناصبهم . وها هو القرآن الكريم ينادى بملء صوته : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾ النساء : ٧٦

و « الطغيان » ، حسب ما نصت عليه معاجم اللغة ، هو
 مجاوزة الحد . وكل شيء جاوز المقدار والحد في العصيان ، فهو
 طاغ ؛ يقال : طغا السيل : ارتفع حتى جاوز الحد في الكثرة ،
 ومنه ورد في التنزيل : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ ﴾ الحاقة : ٦٩ .
 فاستعير الطغيان فيه لتجاوز الماء الحد . وكذلك إذا تجاوز
 الإنسان الحد وعلا في الأرض ، يفسد فيها ويستعبد الناس
 بالقهر والإكراه ، يسلبهم حقوقهم ويحرمهم ثمرات الأرض
 ويخيراتهم ، فذلك هو « القتال في سبيل الطاغوت » الذي ندد به
 الله وجعله شعار الكفار و كَيْدَنَّهُمْ . أما القتال في سبيل الله
 فهو الذي غايته أن يرفرف لواء القانون الإلهي العادل على
 العالمين وتعلو كلمته في الدنيا ، بحيث يتبع المقاتل في سبيل الله
 ذلك القانون العادل بنفسه ، وكذلك يحمل غيره من أفراد
 لبشر على اتباعه وامثال أوامره . وقد وعد الله الذين يقيمون
 لدين ويعلون كلمته في أرضه ولا يجاوزون حدوده ولا يعتون
 من أمره ، شأن المفسدين المتكبرين ، وعدهم الدار الآخرة
 بسعادتها الأبدية ، كما قال عز من قائل :

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي

الْأَرْضِ وَلَا فِسَادًا ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ القصص : ٨٣

وقد ورد في الحديث أنه قال أعرابي للنبي ﷺ : الرجل
يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى
مكانه ، فمن في سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله
هي العليا ، فهو في سبيل الله ^(١) » وكذلك أخرج أبو داود
والنسائي من حديث أبي أمامة رضي الله عنه بأسناد جيد ، قال
جاء رجل فقال : « يا رسول الله ، أرايت رجلا غزا يلتمس
الأجر والذكر ، ماله ؟ قال : « لا شيء له » فأعادها ثلاثاً ، كل
ذلك يقول « لا شيء له » . ثم قال رسول الله ﷺ : « إن الله

(١) متفق عليه (سبيل السلام شرح بلوغ المرام ٣ : ٦٦) . وفي رواية

عند مسلم عن أبي موسى قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل
يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أى ذلك في سبيل الله ، فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل
الله . (الصحيح لمسلم : كتاب الامارة)

لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لله وابتغى به وجهه (١)،
فبتين من ذلك أن الله لا يقبل من الجهاد إلا ما كان خالصاً
لوجهه الكريم وابتغاء لمرضاته ، لا يشوبه شيء من الأغراض
النفسية أو الطائفية والقومية ؛ ومن هنا تعرف ما لهذا الشرط
« في سبيل الله » من أهمية عظيمة في المصطلح الاسلامي ،
وبذلك تدرك ما في تقييد الجهاد الاسلامي بهذا القيد من بُعد
المرمى وسمو الغاية ، فأنت ترى أن كل حيوان خلقه الله في هذه
الأرض مجتهد في سبيل نفسه ، وأصل ليله بنهاره لإدراك
غايته والوصول إلى مرماه ؛ لكن المسلمين — أى الحزب
الانقلابي الذي يدين بالاسلام ويؤمن بمبادئه الانقلابية —
يؤمنون قبل كل شيء بأهم مبادئ الاسلام الانقلابية بل أسسها
وعمادها ، ألا وهو أن ابذلوا مهجكم وأرواحكم وجاهدوا
بأموالكم وأنفسكم في سبيل إقامة كلمة الحق ، وأعدوا لمنازع
الشر والطغيان كل ما استطعتم من معدة وعتاد ، تدفعونها

بقوتكم حيثما كانت وتحشرون شجرة الفساد من جذورها مهما
 رسخت وتغلغل عروقها في الأرض ، وهكذا تواصلون
 جهادكم ﴿ حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ . هذا ،
 ولا ينبغي أن تكون جهودكم ومساعدكم في سبيل مطامعكم
 الدنيئة أو أن تكون أمة هي أربى من أمة وجنس أعلى من
 جنس .

الآن ، وقد بينت فيما تقدم شيئاً من معنى « الجهاد
 الاسلامي » ومغزاه الحقيقي الذي قلما يتفطن له الناس في هذا
 العصر ، أريد أن أصف « الدعوة الانقلاية » التي جاء بها
 الاسلام وتحدي بها المجتمع البشري على اختلاف العصور
 والأزمان ، وصفاً موجزاً مناسباً للموقف والمقام ، حتى يكون
 القراء على بينة من الأمر ، ويعرفوا بسهولة ما في طبيعة هذه
 الدعوة من نزوع إلى الجهاد وافتقار إليه ، وحتى يتيسر لهم
 إدراك غاية « الجهاد » ومرماه .

دعوة الاسلام الانقلاية

لقد تضمنت الآية الكريمة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ... ﴾ الآية . البقرة : ٢١

لباب هذه الدعوة ، دعوة الاسلام الانقلاية ، وجوهرها . فانه لا يخاطب سكان هذه الكرة باسم العُشَمال أو الفلاحين أو الملاكين أو الممولين من أصحاب المعامل والمصانع ولا يُسمِّيهم بأسماء أحزابهم وطبقاتهم ، وإنما يخاطب الاسلامُ بنى آدم كافةً ، ولا يناديهم كذلك إلا بصفة كونهم أفراد الجنس البشرى . فهو يأمرهم أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً ولا يتخذوا إلهاً ولا رباً غيره . وكذلك يدعوهم أن لا يعتوا عن أمر ربهم ، ولا يستنكفوا عن عبادته ، ولا يتكبروا فى أرض الله بغير الحق ، فان الحكم والأمر لله وحده ، ويده مقاليد السماوات والارض ، فلا يجوز لاحد من خلقه ، كائناً من كان ، أن يعلو فى الارض

وَيَتَكَبَّرُ وَيَقْرَرُ النَّاسَ حَتَّى يَخْضَعُوا لَهُ وَيَذَعْنُوا لِأَمْرِهِ وَيَنْقَادُوا
لِجَبْرُوتِهِ . وَدَعْوَتُهُ لَهُمْ جَمِيعاً أَنْ يَخْلُصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ وَحْدَهُ
فَيَكُونُونَ سِوَاهُ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ الشَّامِلَةِ ، كَمَا وَرَدَ فِي التَّنْزِيلِ :
﴿ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ
وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ
اللَّهِ ﴾ آل عمران : ٦٤

فَهَذِهِ دَعْوَةٌ إِلَى التَّحَلُّلِ عَنِ الشَّامِلِ ، لَا غَمُوضَ فِيهَا وَلَا
إِبْهَامَ ، فَإِنَّهُ قَدْ نَادَى بِعِلَّةِ صَوْتِهِ :
﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ . أَمَرَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ . ذَلِكَ
الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ يوسف : ٤٠

فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ أَنْ يَنْصِبَ نَفْسَهُ مُلْكاً عَلَى النَّاسِ
وَمُسَيِّطِراً عَلَيْهِمْ ، بِأَمْرِهِمْ بِمَا يَشَاءُ وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا يُرِيدُ . وَلَا جَرَمَ
أَنْ اسْتَقْلَالَ فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِ الْبَشَرِ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مِنْ غَيْرِ أَنْ
يَكُونَ لَهُ سُلْطَانٌ مِنَ الْمَلِكِ الْأَعْلَى هُوَ تَكْبَرُ فِي أَرْضِ اللَّهِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَعَتَوْهُ عَنْ أَمْرِهِ وَطَمَّوْحَ إِلَى مَقَامِ الْأُلُوْهِيَةِ . وَالذِّيرَ

يرضون أمثال هؤلاء الطواغيت ملوكا لهم وأمرأ ، إنما
يشركونهم بالله ، وذلك مبعث الفساد فى الأرض ، ومنه تتفجر
ينابيع الشر والطغيان . وإذا أنعمت النظر فى الأسباب التى
تعديل بالانسان عن الفطرة السليمة التى فطره الله عليها وتصرفه
عن منهاج الحياة المستقيم الذى أرشده إليه ، وجدت أن
مرجعها جميعاً الى أنهم يَنسَوْنَ الله فَيُنْسَوْنَ حقيقة أنفسهم
وذلك يستلزم أن يقوم رجال أو بيوتات أو طبقات من
المجتمع — سواء منهم من أسرَّ القول ومن جهر به — يتبوءون
مناصب الحكم والقهر ، فتفرض بهم هذه السيطرة أن يخرجوا
عن حدود الفطرة البشرية وتُسول لهم أنفسهم أن يستعبدوا
الناس ويخضعوهم لجبروتهم قهراً ، سواء أعلنوا ذلك أم
أخفوه فى ضمائرهم . هذا فى جانب ، وبجانب آخر يكون من
تأثير هذا الجهل والسفاهة وعدم معرفة الانسان لجلال الألوهية
وجبروتها ، وجهله بقيمة المروءة والشهامة التى أودعتها الفطرة
البشرية ، يكون من نتائجها أن يرضى جزء غير يسير من الناس
جبروت الطغاة المستكبرين وسيطرتهم ويدعن لهم بحقهم فى

الأمر والنهي وينقادوا لأوامرهم خاضعين . وذلك هو أساس الفساد في الأرض ومبعث البغى والعدوان والاستغلال الممقوت ولذلك أتى الاسلام على بنيانه من القواعد ، واجتث شجرة من جذورها ، ولم يدع في القوس منزعاً للريسة والشك . وهاهو ذا يُندد به في آي من الذكر الحكيم محكمة ، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها : —

﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ الشعراء : ١٥١ ، ١٥٢

﴿ وَلَا تَطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ الكهف : ٢٨

﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ هود : ١٨ ، ١٩

وهو يسألهم : ﴿ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ

الْقَهَّارُ؟ ﴿يوسف : ٤٠﴾

فان أُنِيتُم عبودية الله الواحد الفرد الصمد ، دانت رقابكم للطواغيت الذين علوا في الأرض وتمادى بهم الطغيان فاتخذوا من أنفسهم آلهة وأرباباً من دون الله ، ولن تتخلصوا من نير عبوديتهم أبداً ، فانهم لا محالة يمتلكون ناصية أمركم يعيشون في الأرض فساداً ، فان ذلك من طبيعتهم التي طبعوا عليها ، كما نطق بذلك لسان الوحي :

﴿ إِنَّا الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً . وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ النمل : ٤٣

﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ البقرة : ٢٥

ولا يغيبن عن بالكم في هذا المقام أن دعوة الاسلام الى التوحيد وعبادة الله الواحد لم تكن قضية كلامية أو عقيدة لا هوية فحسب ، شأن غيره من النحل والملل ؛ بل الأمر أنها

كانت دعوة الى انقلاب اجتماعي ، أرادت في أول ما أرادت أن تقطع دابر الذين تسنموا ذروة الألوهية واستعبدوا الناس بحيلهم ومكايدهم المختلفة ، فمنهم من تبوأ مناصب السدة والكهنة ، ومنهم من استأثر بالملك والإمرة وتحكم في رقاب الناس ، ومنهم من استبدَّ بمنابع الثروة وخيرات الأرض وجعل الناس عالة عليهم يتكففون ولا يجردون ما يتبلغون به فأرادت دعوة الاسلام أن تقطع دابرهم جميعاً وتستأصل شافتهم استئصالاً . وهؤلاء تارة تسنموا قمة الألوهية جهراً وعلانية وأرادوا أن يقهروا من حولهم من الناس على أن يذعنوا لأمرهم وينقادوا لجبروتهم ، مستندين الى حقوقهم التي ورثوها عن آبائهم أو استأثرت بها الطبقة التي ينتمون اليها ، فقالوا : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ و ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ و ﴿ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ و ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ الى غيرها من كلمات الاستكبار ، ودعاوى الألوهية ، التي تفوهوا بها وتجاسروا عليها بغياً وعدواناً ، وطوراً استعملوا جهل الدهماء وسفهمهم ، فاتخذوا من الأصنام والتماثيل والهاكل آلهة ،

يدعون الناس ويريدونهم على أداء مظاهر العبودية أمام هذه
 التماثيل والهياكل ، متوارين بأنفسهم من ورائها ، يلعبون
 بعقول الناس ، ويستعبدونهم لاغراضهم وشهواتهم ، وهم
 لا يشعرون . فيتبين من ذلك أن دعوة الاسلام الى التوحيد
 وإخلاص العبادة لله الواحد الأحد ، وتنديده بالكفر والشرك
 بالله ، وتحتيمه اجتناب الأوثان والطواغيت ، كل ذلك كان
 يتنافى ويتعارض مع الحكومة والعاملين عليها المتصرفين في
 أمورها والذين يجدون فيها سنداً لهم وعوناً على قضاء حاجاتهم
 وأغراضهم . ومن ثمّ ترى أنه كلما قام نبي من الأنبياء بجاهر
 الناس بالدعوة وخاطبهم قائلاً : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم
 من إله غيرهُ ﴾ قامت في وجهه الحكومات المتمكنة في عصره
 وثار عليه جميع من كانوا يستغلون خيرات البلاد ويستثمرونها
 ظلماً وعدواناً ، خرجت تقاومه وتضع في سبيل الدعوة
 العقبات ؛ وذلك أن هذه الدعوة لم تكن مجرد بيان لعقيدة
 كلامية أو شرح لمسألة من مسائل الالهيات ، وإنما كانت نداء
 لانقلاب اجتماعي عالمي ، ما كانت بوادره لتخفى على المستأثرين

بمناصب العز والجاه ، المستبدين بمنابع الثراء من الذين يشمسون رائحة الاضطراب السياسى قبل حدوثه بأعوام .

خصائص دعوة الاسلام الانقلابية

ومما لا مجال فيه للريب أن رسل الله الكرام — صلوات الله عليهم جميعا — كانوا كلهم دعاة الانقلاب ، ورسائل التجديد والتغيير ، تجديد النظم السياسية والاجتماعية والخلقية والاقتصادية وتغييرها كلياً شاملاً ، وأن النبي العربي الأُمى ﷺ سيد هؤلاء الدعاة وحامل لوائهم . لكن الذى يفرق بين هؤلاء الرسل وغيرهم من دعاة الانقلاب فى العالم ويميزهم من بين أولئك تمييزاً يندأ واضحاً ، هو أن دعاة الانقلاب أو « الانقلابيين » حسب العرف الشائع ، مهما أوتوا من سداد الرأى وثقوب الفكر ، ومهما بلغوا فى صدق الطوية وحسن القصد ، لا يمكنهم أصلاً أن يصيبوا هدف العدل الأسمى ويزنوا الأمور بالقسط — اس المستقيم . وذلك أنهم إما أن يكونوا قد نشأوا بأنفسهم فى الطبقات المضطهدة فى المجتمع

أو قاموا منتصرين للطبقات البائسة المضطهدة من حولهم ،
مطالبين بحقوقهم المنصوبة المهضومة ، فينظرون بحكم أحوالهم
إلى جميع المسائل والمشاكل بنظرة المنكوبين والطبقات البائسة
المضطرومة ، فتكون النتيجة أن نظرتهم إلى المسائل وطريق
تفكيرهم في معضلات الحياة لا تبقى عادلة مبنية على موازين
العدل والقسط العالمية الشاملة للناس جميعاً ، فبينما تراهم يعطفون
على طبقة ويبدون لها عواطف الولاء والمناصرة ، إذا بهم
يرمقون طبقة أخرى بعين الغضب والازدراء ولا يخفون ما في
قلوبهم من العداوة والكراهة الشديدة لها . فكلما تفكروا في علاج
حاسم لأدواء الجور والعسف والطغيان ، غلوا وجاءوا بدواء
هو أشد من ذلك الداء جوراً وأعرق منه في العسف وأكثر
طغياناً . وجملة القول أنهم لا يتسنى لهم بطبيعة أحوالهم
وبيئاتهم — ولا يمكن أن يتسنى لهم — أن يطهروا قلوبهم
من أدران العداوة والانتقام ويزكوا نفوسهم من شوائب الحسد
والبغضاء ، فيضعوا نظاماً اجتماعياً مستنداً إلى أسس العدل
وموازين الحق والقسط ، يضمن سعادة البشر أجمعين . أما

الأنبياء ورسل الله الكرام — صلوات الله عليهم وسلامه —
 فلا يمكن أن يتطرق الى دعوتهم وحركتهم الانقلاية شىء من
 عواطفهم الشخصية ، أو تشوب أعمالهم ومساعدتهم شائبة من
 نوازع قلوبهم ، وان اضطهدوا فى رسالتهم وأوذوا فى سبيل
 الحق ، وأصابهم وأصاب أصحابهم وأتباعهم فى سبيلها صنوف
 من الشدائد والأهوال ؛ وكيف ؟ وهم قاموا برسالتهم بوحى من
 الله العزيز وأمر من عنده ، والله تعالى شأنه وتباركت أسماؤه
 منزه عن نقائص العواطف البشرية ، ينظر الى خلقه بنظرة
 واحدة ، ما لطبقة من البشر من دالة عليه ، ولا هو ، جل ثناؤه
 وتقدسست أسماؤه ، يشكو طبقة أو يضمّر لها سخطاً دون سائر
 الطبقات . فكانت رسل الله الكرام بهداية من ربهم ينظرون
 الى جميع المسائل ومشاكل الحياة الدنيا بعين الإنسانيّة الخالصة
 النقية . وكان جل همهم ومعظم تفكيرهم ماذا عسى أن يكون
 فيه سعادة المجتمع البشرى بأسره ، وما عسى أن يكون فيه
 سعادة الطبقات الجائرة نفسها أيضاً ، وكانوا يسعون دائماً وراء
 إيجاد نظام اجتماعى عادل ، يتمتع فى دائرته كل فرد بحقوقه

المشروعة ، متقيداً بالقيود اللازمة التي لا مندوحة عنها ، حتى ينتظم ما بين الفرد والجماعة من العلاقات على أسس الحق والعدل ، يعطى كل واحد منها نصيبه من الحقوق . وكذلك يلتزم كل واحد منها ما عليه من الواجبات للآخر . ومن ثم ترى أن دعوة الرسل الانقلاية لم تتحول قط الى نزاع وتنافس بين الطبقات . فانهم ما جددوا بناء الحياة الاجتماعية بأن يرفعوا طبقة ويضعوا أخرى مثلاً ، أو يسلطوا بعض الطبقات على بعض في المجتمع ؛ كلا بل إنهم اختاروا طريقاً وسطاً ، وجدّدوا بنيان المجتمع على قواعد العدل والنصفة ، بحيث يتسنى في دائرتها لجميع أفراد الجنس البشرى أن يتمتعوا بحقوقهم الفطرية ، ويرتقوا بأنفسهم الى معارج السعادتين المادية والروحية .

الحاجة الى الجهاد وغايته

ولست في هذا المقام بصدد بيان تفاصيل هذا النظام لاجتماعي الذي جاء به الاسلام ، والاحاطة بخصائصه ومزاياه

وكذلك ليس من الميسور استيفاء الكلام عنه في ضمن هذه المقالة، فإن له موضعه : وستوخى البحث فيه والاحاطة بجميع نواحيه حين سنوح الفرصة إن شاء الله تعالى . والذي أردت تبينه والكشف عن حقيقته بمناسبة الموضوع الذى نحن بصدده الآن ، هو أن الإسلام ليس مجرد مجموعة من العقيدة الكلامية وجملة من المناسك والشعائر ، كما يفهم من معنى الدين فى هذه الايام ؛ بل الحق أنه نظام كلى شامل يريد أن يقضى على سائر النظم الباطلة الجائرة الجارية فى العالم ويقطع دابرها ويستبدل بها نظاماً صالحاً ومنهجاً معتدلاً يرى أنه خير للإنسانية من النظم الأخرى ، وأن فيه نجاةً للجنس البشرى من أدواء الشر والطغيان ، وسعادة له وفلاحاً فى العاجلة والآجلة معاً .

ودعوته فى هذه السبيل ، سبيل الإصلاح والتجديد والهدم والبناء ، عامة للجنس البشرى كافة ، لا تختص بأمة دون أمة أو طائفة دون طائفة . فهو يدعو بنى آدم جميعاً إلى كلمته ، حتى أنه يهيب بالطبقات الجائرة نفسها من تعدوا حدود الله

في أرضه واستأثروا بخيرات الأرض دون سائر الناس . يهيب بالملوك والأمراء أنفسهم ويناديهم قائلاً : « لا تطغوا في الأرض ، وادخلوا في كنف حدود الله التي حددّها لكم ، وكفّشوا أيديكم عما نهى الله عنه وحذّركم إياه . فان أسلّمتم لأمر الله ، ودّتم لنظام الحق والعدل الذي أقامه للناس خيراً وبركة ، فلکم الأمن والدعة والسلامة . فان الحق لا يعادى أحداً ، وإنما يُعادى الحق الجور والفساد والفحشاء ، وأن يتعدى الرجل حدوده الفطرية ويبتغي ما وراء ذلك مما لاحظ له فيه حسب سنن الكون و ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ .

فكل من آمن بهذه الدعوة وتقبلها بقبول حسن ، يصير عضواً في « الجماعة الإسلامية » أو « الحزب الإسلامي » لافرق في ذلك بين الأحمر منهم والأسود أو الغني منهم والفقير ، كلهم سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لأمة على أمة أو لطبقة على أخرى . وبذلك يتكون ذلك الحزب العالمي أو الأممى الذى سُمي ﴿ حزب الله ﴾ بلسان الوحي .

وما إن يتكون هذا الحزب حتى يبدأ بالجهاد في سبيل

الغاية التي أنشئ لأجلها . فمن طبيعته وما يستدعيه وجوده أن لا يالو جهداً في القضاء على نظم الحكم التي أسس بنيانها على غير قواعد الاسلام واستئصال شأفتها ، وأن يستنفذ مجهوده في أن يستبدل بها نظاماً للعمران والاجتماع معتدلاً ؛ مؤسساً على قواعد ذلك القانون الوسط العدل الذي يُسميه القرآن الكريم ﴿كَلِمَةُ اللَّهِ﴾ . فان لم يبذل هذا الحزب الجهد المستطاع ولم يسع سعيه وراء تغيير نظم الحكم وإقامة نظام الحق ، نظام الحكم المؤسس على قواعد الاسلام . ولم يجاهد حق جهاده في هذه السبيل ، فاتته غايته . وقصر عن تحقيق البغية التي أنشئ لأجلها ، فانه ما أنشئ إلا لادراك هذه الغاية وتحقيق هذه البغية ، بغية إقامة نظام الحق والعدل ، ولا غاية له ولا عمل إلا الجهاد في هذه السبيل . وهذه الغاية الوحيدة التي يئنها الله تعالى في كتابه العزيز بقوله :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ آل عمران : ١١٠ .
ولا يظن أحد أن هذا الحزب — ﴿حزب الله﴾ — بلسان

الوحي — مجرد جماعة من الوعاظ المبشرين يعظون الناس في المساجد ويدعونهم الى مذاهبهم ومسالكتهم بالخطب والمقالات . لا ، ليس الامر كذلك وإنما هو حزب أنشأه الله ليحمل لواء الحق والعدل بيده ويكون شهيداً على الناس . ومن مهمته التي ألقيت على كاهله من أول يوم ، أن يقضى على منابع الشر والعدوان ، ويقطع دابر الجور والفساد في الأرض والاستغلال الممقوت ، وأن يكبح جماح الآلهة الكاذبة الذين تكبروا في أرض الله بنير الحق وجعلوا أنفسهم أرباباً من دون الله ، ويستأصل شأفة ألوهيتهم ، ويقيم نظاماً للحكم والعمران صالحاً يتفياً ظلاله القاصي والداني والغني والفقير . والى هذا المعنى أشار الله تعالى في غير واحدة من آي الذكر الحكيم :

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾

الانفال : ٣٨

﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ الانفال : ٧٣

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى

الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ التوبة : ٣٣

فتبين من كل ذلك أن هذا الحزب لا بد له من امتلاك ناصية الأمر ، ولا مندوحة له عن القبض على زمام الحكم ، لأن نظام العمران الفاسد لا يقوم إلا على أساس حكومة مؤسسة على قواعد العدوان والفساد في الأرض ؛ وكذلك ليس من الممكن أن يقوم نظام للحكم صالح ويؤتى أكله إلا بعد ما ينتزع زمام الأمر من أيدي الطغاة المفسدين ، ويأخذه بأيديهم رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً .

وأضف الى ذلك أن هذا الحزب ، بصرف النظر عما يرمى اليه من إصلاح العالم وبث الخير والفضيلة في أنحاء الأرض كافة لا يقدر أن يبقى ثابتاً على خطته متمسكاً بمنهاجه ، عاملاً وفق مقتضياته ؛ ما دام نظام الحكم قائماً على أساس آخر ، سائراً على منهاج غير منهاجه . وذلك أن حزباً مؤمناً بمبدأ ونظام للحياة والحكم خاص ، لا يمكنه أن يعيش متمسكاً بمبدئه عاملاً حسب مقتضاه في ظل نظام للحكم مؤسس على مبادئ وغايات غير المبادئ والغايات التي يؤمن بها ويريد السير على منهاجها . فان

رجلا يؤمن بمبادئ الشيوعية إن أراد أن يعيش في بريطانيا أو ألمانيا (١) متمسكا بمبادئه سائراً في حياته على البرنامج الذي تقرره الشيوعية ، فلن يتمكن من ذلك أبداً ؛ لأن النظم التي تقررها الرأسمالية والنازية تكون مهيمنة عليه قاهرة بما أوتيت من سلطان ؛ فلا يمكنه أن يتخلص من براثنها أصلاً . وكذلك إن أراد مسلم أن يقضى حياته مستظلاً بنظام للحكم مناقض لمبادئ الاسلام الخالدة ووجوده أن يبقى متمسكاً بمبادئ الاسلام ، سائراً وفق مقتضاه في أعماله اليومية ، فلن يتسنى له ذلك ولا يمكنه أن ينجح في بنيته هذه أبداً ؛ لأن القوانين التي يراها باطلة ، والضرائب التي يعتقدها غراماً ونهباً لأموال الناس والقضايا التي يحسبها جائرة عن الحق وافتسائاتاً على العدل ، والنظم التي يعرف أنها مبعث الفساد في الأرض ، ومناهج التعليم التي يحزم بوخامة عاقبتها وسوء نتائجها ويرى فيها هلاكاً للامة — يجد كل هذه مهيمنة عليه ومسيطرة على بيئته وأهله

(١) كتبت هذه المقالة عام ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م)

وأولاده ، بحيث لا يمكنه أن يتخلص من قيودها وينجو بنفسه وأهله من أثرها ونفوذها . فالذى يؤمن بعقيدة ونظام ، فرداً كان أو جماعة ، مضطر بطبيعة عقيدته وإيمانه بها أن يسعى سعيه فى القضاء على نظم الحكم القائمة على فكرة غير فكرته ؛ ويبذل الجهد المستطاع فى إقامة نظام للحكم مستنداً إلى الفكرة التى يؤمن بها ويعتقد أن فيها سعادة للبشر ، لأنه لا يتسنى له العمل بموجب عقيدته والسير على منهاجه إلا بهذا الطريق . وإذا رأيت رجلاً لا يسعى وراء غايته أو ينفل عن هذا الواجب ، فاعلم أنه كاذب فى دعواه ولما يدخل الايمان فى قلبه ، وبهذا المعنى ورد فى التنزيل :

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لَمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ . لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُحَآمِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ التوبة : ٤٥

وأى شهادة أصدق وأى حجة أنصح وأبلغ من شهادة القرآن وحجته؟ ففي هذه الآيات من سورة براءة قد نص القرآن الكريم على أن الذى لا يلبس نداء الجهاد ولا يجاهد بماله ونفسه فى سبيل إعلاء كلمة الله وإقامة الدين الذى ارتضاه لنفسه وتوطيد نظام الحكم المبني على قواعده ، فهو فى عداد الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم ، فهم فى ريبهم يترددون . وهذا هو المقياس الذى يقاس به صدق المرء فى عقيدته وإخلاصه لها . فان الذى يدعى لنظم الحكم القائمة على فكرة غير الفكرة التى يؤمن بها ، كأنه يعلن للناس أنه كاذب فى دعواه غير مخلص فى عقيدته . ومن النتائج اللازمة الفطرية لهذا الخضوع والاذعان أن يتزحزح مثل هذا الرجل عن عقيدته ويتدرج الى الانحلال عن ذلك القليل من الايمان الذى قد يكون باقياً فى قلبه بعد الاستسلام للنظم الباطلة والخضوع لها . وذلك أنك بادية ذى بدء تستسلم للنظم الباطلة ، وقلبك غير مطمئن لها ، ثم يأخذ قلبك يستأنس بها يوماً بعد يوم حتى تطمئن لها وتسكن اليها وتحس من نفسك ميلاً

وتشوقاً إليها ؛ وهكذا تتدرج في الركون إليها والاستئناس بها إلى أن تكون عوناً لهم ومؤزراً في توطيد دعائم النظام الباطلة وتسيير دفة شؤونها ، حتى يأتي عليك يوم وأنت لاتضن يبذل النفوس والنفائس في سبيل إقامة صرح الآراء الباطلة وإحكام بنائها ، ولا تتخرج في الجهاد بنفسك وذات يدك تقوياً لدعائم الاسلام وصدأ للناس عن سبل الحق والعدل . وإذا بلغ الأمر برجل إلى هذا الحد فلا فرق بينه وبين الكافر إلا أن هذا مجاهر بعدوانه وذلك منافق بماذق ينسب بأسماء المسلمين زوراً ورثاء الناس ويقول ما لا يؤمن به كذباً وافتراء على الله . وإلى ذلك أشار النبي ﷺ في ما روى عنه :

« والذي نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد المسىء ولتأطرنه على الحق أطراً ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم » (١)

(١) رواه أبو داود في الباب ١٧ من كتاب الملاحم ، والترمذى في الباب ٥-٦ من تفسير سورة المائدة من كتاب التفسير في سنته ، وابن ماجه في الباب ٢٠ من كتاب الفتى . وأورد الامام احمد طرماً منه في المسند ١ : ٣٩١ الطبعة الاولى — و ٥ : ٢٦٨ طعة الشيخ أحمد شاكر . وهو في تفسير ابن كثير الآية ٧٨ — ٨١

الانقلاب العالمى الشامل

لعلك تبيّنت بما أسلفنا آنفاً أن غاية « الجهاد فى الاسلام » هو هدم بنى الانظمة المناقضة لمبادئه وإقامة حكومة مؤسّسة على قواعد الاسلام فى مكانها واسبدالها بها . وهذه المهمة ، مهمة إحداث انقلاب اسلامى عام ، غير منحصرة فى قطر دون قطر ، بل بما يريد الاسلام ويضعه نصب عينيه أن يحدث هذا الانقلاب الشامل فى جميع أنحاء المعمورة . هذه هى غايته العليا ومقصده الاسمى الذى يطمح اليه ببصره ؛ إلا أنه لا مندوحة للمسلمين أو « أعضاء الحزب الاسلامى » عن الشروع فى مهمتهم بإحداث الانقلاب المنشود والسعى وراء تخير نظم الحكم فى بلادهم التى يسكنونها . أما غايتهم العليا وهدفهم الاسمى فهو الانقلاب العالمى الشامل المحيط بجميع أنحاء الأرض . وذلك أن فكرة انقلابية لا تؤمن بالقومية ، بل تدعو الناس جميعاً إلى سعادة البشر وفلاح الناس أجمعين ، لا يمكنها أصلاً أن تضيق دائرة عملها فى نطاق محدود من أمة أو قطر ؛ بل

الحق أنها مضطرة بسجيتها وجبلتها أن تجعل الانقلاب العالمى غايتها التى تضمها نصب عينها ولا تنفل عنها طرفة عين . فان الحق يأبى الحدود الجغرافية ولا يرضى أن ينحصر فى حدود ضيقة اخترعها علماء الجغرافية واصطلحوا عليها . فالحق يتحدى العقول البشرية النزيهة ويقول لها مطالباً بحقه : « ما بالكم تقولون ان القضية الفلانية (حق) فى هذا الجانب من ذاك الجبل أو النهر مثلاً ، ثم تعود تلك القضية نفسها (باطلاً) بزعمكم إذا جاوزنا ذاك الجبل أو النهر باذرع » . الحق حق فى كل حال وفى كل مكان ، وأى تأثير للجبال والأنهار فى تضيير حقيقته المعنوية . الحق ظله وارف ، وخيره عام شامل ، لا يختص ببيئة دون بيئة ولا قطر دون قطر . فأينما وجد الانسان مقهوراً ، فالحق من واجبه أن يدركه ويأخذ بحقه وينتصر له . ومهما أصيبت الانسانية فى أبنائها المستضعفين ، فعلى العدل ومبادئه والحاملين للوائه أن يلبسوا نداءها ويأخذوا بناصرهم ، حتى ينتصروا لهم من أعدائهم الجائرين ، ويستردوا لهم حقوقهم المغصوبة التى استبد بها الظغاة بغياً وعدواناً . وبهذا المعنى نطق لسان الوحي ، حيث ورد فى التنزيل :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ
الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ
الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ النساء : ٧٥

وزد على ذلك أن الأواصر البشرية والعلاقات الانسانية ،
على ما أثرت فيها الفوارق القومية والوطنية ، وأحدثت فيها
من نزعات الشتات والاختلاف ، قد تشتمل على تلاؤم شامل
وتجانس عام بين أجزائها ، ربما يتعذر معه أن تسير مملكة في
قطر بعينه حسب مبادئها وخطتها المرسومة المستينة ، ما دامت
الأقطار المجاورة لها لا توافقها على مبادئها وخطتها ، ولا ترضى
بالسير وفق منهاجها وبرنامجها . ومن أجل ذلك وجب على
الحزب المسلم ، حفظاً لكيانه وابتغاءً للإصلاح المنشود ، أن
لا يقتنع باقامة نظام الحكم الاسلامي في قطر واحد بعينه ؛ بل
من واجبه الذي لا مناص له منه بحال من الأحوال أن
لا يدخر جهداً في توسيع نطاق هذا النظام وبسط نفوذه في
مختلف أرجاء الأرض . ذلك بأن يسعى الحزب الاسلامي في
جانب وراء نشر الفكرة الاسلامية ، وتعميم نظرياتها الكاملة ،

ونشرها في أقصى الأرض وأدناها ، ويدعو سكان المعمورة على اختلاف بلادهم وأجناسهم وطبقاتهم أن يتلقوا هذه بالقبول ، ويدينوا بهذا المنهاج الذي يضمن لهم السعادتين ؛ سعادتي الدنيا والآخرة ؛ وبجانب آخر يشمر عن ساق الجهد ، ويقاوم الزعم الجائرة المناقضة لقواعد الحق والعدل بالقوة ؛ إذا استطاع ذلك وأعد له عدته ، ويقيم مكانها نظام العدل والنصفة المؤسس على قواعد الاسلام ومبادئه الخالدة التي لا تبلى ولن تبلى جدتها على مرور الأيام والليالي .

هذه هي الخطة التي سلكها ؛ وهذا هو المنهاج الذي اتبعه النبي ﷺ ومن جاء بعده وسار بسيرته من الخلفاء الراشدين . فانهم بدأوا ببلاد العرب التي أشرقت شمس الاسلام من آفاقها وأخضعوها أولا لحكم الاسلام وأدخلوها في كنف المملكة الاسلامية الجديدة ؛ ثم دعا النبي ﷺ الملوك والأمراء والرؤساء في مختلف بقاع الأرض الى دين الحق والإذعان لأمر الله . فالذين آمنوا بهذه الدعوة انضموا إلى هذه المملكة الاسلامية وأصبحوا من أهلها . والذين لم يلبوا دعوتها ولم

يتقبلوها بقبول حسن ؛ شرع في قتالهم وجهادهم . ولما استخلف أبو بكر رضى الله عنه بعد وفاته ﷺ والتحاقه بالرفيق الأعلى : حمل على المملكتين المجاورتين للمملكة الاسلامية : مملكة الروم والفرس اللتين بلغ من عُمُوسُهما وتماديهما في النسي والاستكبار فى الأرض ما طبقت شهرته الآفاق . وبلغت هذه الحملات — التى بدأ بها الصديق رضى الله عنه — غايتها فى عصر الفاروق الذى يرجع اليه الفضل العظيم فى توطيد دعائم المملكة الاسلامية الأولى ؛ حتى شمل ظلها الوارف تلك الأقطار جميعاً هذا ، وقد ظن الجمهور من سكان مصر والشام وبلاد الروم والفرس فى أول الامر أن هذه الحملات المتتابعة من العرب وهذه الفتوحات العظيمة التى زادت العرب مجداً وأبهة ، إن هى إلا من قبيل خطة الاستعباد والاستعمار ، قد اختارها العرب وجعلوها شعارهم وديدنهم ، شأن الأمم الجائرة التى سبقتهم فى غابر الأزمان . فقد خيل اليهم بادى ذى بدء أن مثل العرب فى هذه الفتوحات والغزوات كمثل الأمم من قبلهم ، خرجت من أرضها تستعبد الشعوب المستضعفة وتسوقهم بعصا

القهر والعنف وتتصرف في رقابهم وأموالهم تصرف راعى
 الابل في ماشيته . ومن تم ترى أنهم انضوا في أول الامر
 تحت لواء ملوك الروم والفرس وتجنّدوا في جيوشهم وبرزوا
 للقاء المسلمين وقاتلهم . ولكنهم لما تبين لهم أمر المسلمين وما
 خرجوا من ديارهم لأجله وعرفوا منهاج الانقلاب الشامل
 الذى يريدون تعميمه ونشر كلمته في أقطار الأرض كافة ، لما
 ظهر لهم أن هؤلاء العرب لا يقولون بالقومية الجائرة وأنهم
 ما تدنست أذيالهم بأرجاس الأغراض القومية ؛ وأنهم ما
 نزحوا من بلادهم إلا لإقامة نظام للحكم مؤسس على قواعد
 العدل والنصفة ، وأنهم ما استلوا السيوف من أغمادها إلا
 للقضاء على الطبقات الناجمة الجائرة التى استبدت بموارد الثراء
 والرخاء من دونهم . وسامتهم أنواع الخسف والعذاب المهيّن
 تحت حماية النظم الكسروية والقيصرية وتبوأّت مناصب
 الألوهية عتواً واستكباراً فى الأرض — لما تبين لهم كل ذلك ؛
 وشاهدوا حال الغزاة الفاتحين بأعينهم وتجلت لهم أخلاقهم
 الزكية الطاهرة ؛ مالوا بطبعهم الى الحزب الاسلامى ؛ وبدأوا

يتسللون من جيوش الروم والفرس . وإن اضطروا بعد ذلك الى القتال في صفوفهم أو ألجأتهم الأحوال الى ذلك . فلم يقاتلوا إلا مكرهين وأنفسهم تلومهم على ذلك . ومن هاهنا تعرف السبب الذي ساعد المسلمين على الانتصارات الباهرة والفتوح العظيمة التي أحرزوها في أول عهدهم بالحروب والغزوات . ومن أجل ذلك ترى أنه لما رأى سكان هذه البلاد المملكة الاسلامية تسير وفق مبادئها على قوانين العدل والصفة ، وشاهدوا نظام الاسلام الاجتماعي يعمل عمله على مرأى ومسمع منهم ، وعايينوا ما أجدى به ذلك النظام على بلادهم من الرفاهية والطمأنينة ؛ جعلوا يلبون دعوته ويدخلون زرافات ووجدانا في نظام ذلك الحزب العالمى وينضوون تحت لوائه ، الى أن حملوا بأنفسهم تلك الراية ، راية الاصلاح الشامل والانقلاب العالمى ؛ وتقدموا الى مختلف أقطار العالم النائية يدعون أهلها الى الدخول في كنف ذلك النظام الكافل لسعادة البشر والتمتع بخيراته وثمراته .

لا مساغ لتقسيم الجهاد الى الهجومي والدفاعي

هذا ، واذا تدبرت ما بينته آنفا وسبرت غوره ، ظهر لك جلياً أن ما اصطالحوا عليه اليوم من تقسيم القتال الى الهجومي والدفاعي ، لا يصح إطلاقه على الجهاد الاسلامي البتة . وإنما يصدق هذا المصطلح على الحروب القومية والوطنية فقط . لأن هاتين الكلمتين المصطلح عليهما لا ينطق بهما وما جرى استعمالهما إلا بالنسبة الى قطر مخصوص أو أمة بعينها . وأما إذا قام حزب عالمي مستند الى فكرة انقلابية شاملة لا تفرق بين أمة دون أمة ولا تخص قطراً دون قطر ، يدعو جميع الأمم والشعوب على اختلاف أجناسها ولغاتها الى فكرته ومنهجه ، مفتوحة أبوابه لكل من يريد المشاركة في بث تلك الدعوة ونشر تلك الفكرة ، ولا يسعى إلا وراء القضاء على الحكومات الجائرة المناقضة لمبادئ الحق الخالدة ، وإقامة حكومة صالحة مؤسس بنيانها على قواعد الحق والعدل التي يؤمن بها ويدعو اليها — أما إذا كان الأمر كذلك فلا مجال في دائرته البتة لما اصطالحوا عليه من نوعي القتال الهجومي

والدفاعى . وكذلك إذا نظرنا فى المسألة بصرف النظر عن هذا المصطلح الشائع ، تبين لنا أنه لا ينطبق هذا التقسيم — الى الهجومى والدفاعى — على الجهاد الاسلامى بحال من الأحوال ، فان الجهاد الاسلامى ، اذا أردت الحقيقة ، هجومى ودفاعى معاً ، هجومى لأن الحزب الاسلامى يضادّ ويعارض الممالك القائمة على المبادئ المناقضة للاسلام ويريد قطع دابرهما ولا يتحرج فى استخدام القوى الحرية لذلك . وأما كونه دفاعياً فلأنه مضطر الى تشييد بنيان المملكة وتوطيد دعائمها حتى يتسنى له العمل وفق برنامج وخطته المرسومة . وغير خاف عليك أن الاسلام حزب ، فليس له من هذه الوجهة دار محدودة بالحدود الجغرافية ، يزود ويدافع عنها ، وإنما يملك مبادئ وأصولاً يذب عنها ويستमित فى الدفاع عنها . وكذلك لا يحمل على « دار » الحزب الذى يعارضه ويناقضه ، وإنما يحمل ويصول على المبادئ التى يتمسك بها . ولا يخين عن بالك أنه لا يريد بهذه الحملة أن يكره من يخالفه فى الفكرة على ترك عقيدته والايمان بمبادئ الاسلام ، وإنما يريد الحزب الاسلامى أن

ينتزع زمام الأمر من يؤمنون بالمبادئ والنظم الباطلة حتى يستتب الأمر لحكمة لواء الحق ولا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

حقوق أهل الذمة

ومن هنا تنحل عقدة أخرى طالما استعصى على الناس حلها وأشكل عليهم أمرها . وذلك أن ما تقدم آنفاً من خصائص الجهاد الاسلامي وبيان مزاياه ، يتضح به جلياً ما يمكن أن يكون من الحقوق في ضمن نطاق المملكة الاسلامية للذين لا يؤمنون بمبادئها ، بل يدينون بمبادئ أخرى غيرها . فالجهاد الاسلامي لا يتعرض لعقائد الناس ومناسكهم أو مناهج شؤونهم الاجتماعية التي اختاروها وآثروها لأنفسهم ؛ فلم الخيار في أن يدينوا بما شاءوا من العقائد ، ولهم الحرية التامة في أن يختاروا ما استحسوه من المناهج . لكنه لا يرضى أن تكون لهم الحرية في تسيير دفة الحكم على مناهج ما أنزل الله به من سلطان ، وكذلك لا يسمح لهم ولا يعترف لهم بحق في أن تسيير عقودهم

ومعاملاتهم في دائرة المملكة الإسلامية على الطرق الفاسدة التي هي شر على المجتمع ، وفيها خراب للعمران ، وإن كانوا قد تعودوها من قبل . خذ لذلك مثلاً الربا ، فإنه لا يلبث أن يتولى الحكم ويقبض على ناصية الأمر حتى يأمر بالقضاء عليه واستئصال شأفته وإيصاد جميع الأبواب التي يخشى منها الوصول إليه . وكذلك لا يبيع القمار ، كأننا ما كان ، ولا يسمح للناس بأن يتعاملوا ويتعاقدوا بالطرق الفاسدة المحظورة في الشرع ، دع عنك دور البغايا والمومسات ، فإن الحكم الإسلامي يأتي على بنيانها من القواعد ويقضى عليها في أول ما يقضى عليه من الموبقات الاجتماعية . وعلى غرار ذلك يكره غير المسلمات من النساء على التزام آداب الحياء والحشمة ، ويمنعن من تبرج الجاهلية ، ويجبرهن على التقيد بالقيود اللازمة التي قررها الشرع في ستر عورات النساء . وكذلك يراقب دور السينما والملاهي ، ويطهرها من أرجاس الخلاعة والفجور . ويوجهها وجهة الخير والرشاد . هذه وأمثالها من الشؤون الاجتماعية وغيرها ، لا تسمح بها المملكة الإسلامية ، حفظاً لمصالح المجتمع البشري

وسعادته ، بل ضنا بكرامتها وحرصا على الاحتفاظ بخصائصها ومقوماتها ، لا تسمح لرعيتهما من غير المسلمين أن يبروا على سننهم وتقاليدهم التي يعدها الاسلام خطراً على المجتمع ، ومبعت شر وفساد الانسانية ، وان أمكن أن لا يكون فيها غضاضة في شرائعهم . ولا يجدون في أنفسهم حرجا من التعامل بها حسب عاداتهم وتقاليدهم .

والذى يظهر له فى بادية الرأى أن الاسلام قد جاوز فى هذا الباب حدود التسامح واختار طريق الاضطهاد والتضييق ، فما أجدره أن يوازن بين ما عامل به الاسلام مخالفه من النساخ وما عاملت به المذاهب الأخرى الانقلابية أو الاصلاحية مخالفها . فان هذه الموازنة تظهر له الأمر الصراح ، وتبين الفرق العظيم الذى يحده بين الاسلام وغيره من المذاهب والنظريات فى هذا الشأن . فانه يرى أن المذاهب الانقلابية والاجتماعية الاخرى غير الاسلام قد بلغت من الاضطهاد والتضييق مبلغا يكاد يضيق به ذرعا من يخالفها فى الفكر والرأى حتى انهم لا يرون لهم ملجأ إلا فى الجلاء من أوطانهم والتشرد

في آفاق الأرض . أما الاسلام فبازاء تلك المعاملة الشنيعة يضمن السلامة والدعة لكل فرد من أفراد البشر ، كائناً من كان ، ويهيئ لهم فرص الرقي والازدهار في كل ناحية من نواحي الحياة ، ويعاملهم بالحسنى مما لا تجد ولن تجد له نظيراً في العالم .

لا استعمار ولا استغلال

وما يجب على أن أعيد ذكره في هذا المقام أن « الجهاد » في نظر الاسلام لا يكون إلا « في سبيل الله » وابتغاء وجه الرب تعالى وحده . فلا يجوز للمسلمين أبداً أن يخذوا حذو الملوك المستبدين والطغاة المستكبرين إذا أنعم الله عليهم بالنصر والفتح في جهادهم وغزواتهم . فان المسلم لا يقاتل ، ولا يجوز له أن يقاتل وهو مسلم ، ليتبوأ عرش الكسروية ، ويستخر البلاد والرقاب لمآربه ، ويُرْخى لنفسه العنان يعيش في رغد وينغمس في اللذات والشهوات ، شأن الطغاة المستكبرين الذين يستغلون خيرات الأرض لأغراضهم ، ويتخذون من عباد الله المستضعفين مطية لأهوائهم وشهواتهم . لا ، والله ما ذلك من

الجهاد في سبيل الله في شيء ، إنما هو القتال في سبيل الطاغوت ،
والاسلام يتبرأ من مثل هذا الجهاد وأمثال تلك الحكومات
الغاشمة . أما الجهاد الاسلامي فلا يزيد المسلمين إلا صبراً أعلى المكاره
وزهداً في متع الدنيا ولذائذها . وفوق ذلك يكلفهم المشاق البالغة
ويروضهم على بذل النفوس والنفائس ، والتجرد من مطامع الدنيا
وشهواتها في سبيل الله . وإذا أنعم الله على المسلمين بالفتوح
وأيدهم بنصر من عنده ، فامتلكوا ناصية الأمر ، ودانت لهم
الرقاب ، فلا تسل عما يحسه من يتولى الحكم من بين المسلمين
الصادقين من ثقل المسؤولية وعناء الأمر . فانه ربما تمضى عليه
أسابيع وشهور لا يتمتع في النهار بالراحة ولا يذوق لذاتة الكرى
في الليالي حرصاً على مصالح الرعية وتفقداً لأحوال العجزة
المستضعفين منهم . وزد على ذلك أن الأمير المسلم لا يجوز له أبداً
أن يتمتع بلذائذ الحياة الشبيهة ويتنعم بأبهة الملك وفخفخة الإمارة
مكافأة على الجهود التي يبذلها في إصلاح شأن الملك ومراقبة
نظم الحكومة العديدة المتشعبة . مع أن الحكومات في الدنيا
لا يتهافت الناس عليها وعلى التدخل في إدارتها وتسيير شؤونها

إلا حرصاً على تلك الآبهة والفخفة ولذائد الحياة ومتمها .
فالذى يتولى الأمر من بين المسلمين لا فضل له على سائر رعيته
إلا بالتقوى ، ولا سلطان له عليهم إلا بأمر من الله ورسوله ،
فليس له أن يتبوأ عرش العظمة والجلالة ، ويتظاهر بعلو شأنه
وارتفاع منزلته ، ولا يجوز له أن يخضع رقاب الناس ويجعلهم
يذعنون لجبروته ؛ وكذلك ليس فى مكتته أن يتقدم خطوة
فى طريق يعارض الطريق الذى أوضحت معالمه الشريعةُ الغراء
ويحرك ساكناً من غير مستندٍ من كتاب الله وسنة نبيه ؛ ولا
يقدر أن يُعفى نفسه أو أحد أصدقائه وذوى قرباه من حق
يجب عليه أدائه لأى رجل ، مهما يكن حقيراً أو صغيراً فى
المجتمع ؛ وأيضاً لا يسوغ له أن يأخذ حبة من خردل أو يمتلك
شبراً من أرض من غير أن يكون له حق فيها . وحرام عليه
أن يأخذ من بيت مال المسلمين ما يفضل — ولو قليلاً — عما
يقوم بأود حياة رجل من أوساط الناس . والمسكين — وما
أحراره أن يسمى مسكيناً ، وأى رجل أحق بالشفقة
وأقرب الى « المسكنة » من الذى يتولى أمر المسلمين وهو

محاط بهذه القيود الثقيلة — ليس له أن يشيد الأبنية الشاهقة ولا يباح له أن يتبسط في المعيشة أو يأخذ حظه من نعيم الحياة وبلهنية العيش ، فانه ما كان له أن يذهل عن واجباته ولو لمحة واحدة ، ولا يسعه أن يغفل ، ولا طريقة عين ، عن اليوم الذي يحضر فيه بين يدي ربه ويحاسب على أعماله حساباً عسيراً . وهذا الشعور بالمسؤولية ، وهذه الخشية الالهية هي التي تملك عليه نفسه وأهواءه وتشرف عليه في غدواته وروحاته . فان الحايك المسلم يرى ويعتقد أنه محاسب بين يدي ربه على جميع أعماله ، جليلها وحتميرها ، كبيرها وصغيرها ، فكأنى به يتفكر في نفسه ما ذا يكون من أمرى في ذلك اليوم العسير إذا مُنحت اليوه أمانة ، أو اقتطعت ذراعاً من أرض ، أو تكبرت في أرض الله بغير الحق ، وظهرت منى بوادى الظلم والعسف ، أو خالطت أعمالى شوائب الأثرة ، واتبعت الهوى فى ما أقوم به من عمل يتفكر فى هذه كلها ، فيرتدع عنها ويمتنع خوفاً على نفسه من سخط الله وغضبه . وإيم الحق ان الذى يطمع فى الدنيا والتمتع بما فيها من لذات الحياة وأسباب العيش الرغيد ، لا يتجاسر

أبدأ على أن يتولى أمر المسلمين بيده . وإذا رأيت أحداً
يحتريء على ذلك ، وبه من طمع الدنيا والافتتان بزخارف
الحياة العاجلة ما لا يطيق دفعه ، فاعلم أنه أخرج قليل العقل
لا يعرف ما هو مُقبل عليه ولا يدرى ما هو بصدده ، لأن
رجلاً من عامة رجال المسلمين يكسب رزقه بصناعة أو تجارة ،
كيفما كانت ضئيلة ، هو أحسن حالا وأرغد عيشا من ولى أمر
المسلمين ، فإن الصانع أو التاجر يشتغل في نهاره ويكسب أكثر
بما يعطى 'خليفة' المسلمين من بيت مال الحكومة ، وينام ملء
جفونه طول الليل لا يُقِصُّ عليه مضجعه شيء . وأما الخليفة
المسكين ، فلاحظ له من أسباب المعاش كحظ التاجر أو العامل ،
ولا يتاح له أن يذوق لذة الكرى كعامة الرجال .

هذا هو الفرق الجوهرى أو الأساسى بين الحكومات
الاسلامية وغيرها من الحكومات . فان الطبقة الحاكمة فى
الحكومات غير الاسلامية تستبد بموارد الثراء وتستغل خيرات
الأرض لمآربها وتنبوأ عرش الألوهية فى أرض الله طغيانا
وكفراً . أما الحكومات الاسلامية ، فهى بعكس هاتيك

الحكومات الجائرة ؛ فان الطبقة الحاكمة في الحكومة الاسلامية لا يكون من همها إلا إسداء المعروف الى الرعية والترفيه عنهم من غير فرق بين عامتهم وخاصتهم ، ولا تجعل نصيبها من موارد الدولة إلا كنصيب عامة الناس . واذا وازنت بين ما كان يُمنح عمال الحكومة الاسلامية أو قضاتها وولايتها من الجرايات الشهرية وبين ما كان يعطى أمثالهم في الحكومات المعاصرة لها من الرواتب الضخمة أو ما يناله موظفو الحكومات المستعمرة الحاضرة من المرتبات الباهظة ، تبين لك ما بين غزوات الاسلام وفتوحه وبين جشع الادارة التسلطية وخطتها الاستعمارية من الفوارق الروحية والجوهرية العظيمة ، فما كان لولاية المقاطعات الكبيرة أمثال خراسان والعراق والشام ومصر في الحكومة الاسلامية من الرواتب ما يناله اليوم موظف صغير في الحكومات الحاضرة . وناهيك مثلاً بامير المؤمنين أبي بكر الصديق ، خليفة رسول الله ﷺ فإنه كان يدبر شئون مملكة واسعة ، وله من بيت مال الحكومة

ما لا تزيد قيمته على مائة روية شهريا ^(١) . وكذلك الفاروق
عمر بن الخطاب ، فما كان يأخذ لقوته ولعِياله أكثر من مائة
وخمسين روية شهريا ^(٢) ، مع أن خزانة المملكة في عهده
تكاد تَغْصُ بما كان ينهال عليها من موارد الغنيمة وجبايات
الأرض بما أنعم الله عليهم بالفتوح الباهرة في أراضى الروم
وبلاد فارس . فالذى يظهر لأول وهلة أن الاسلام أيضا
يفتح ويدوخ الأمصار والبلاد كالتسلطية والاستعمار ، ولكن
شأن ما بينهما في الجوهر والمبدأ والغاية :

لشأن ما بين اليزيديين فى الندى يزيد سليم والأغر ابن حاتم
وأين الثرى من الثريا والأرض من السماء ؟

هذه هى حقيقة « الجهاد » الذى أبدأوا وأعادوا فى
تشويه سمعته وتحريف كلمته ، والذى طالما سمعتم فيه شيئا كثيرا .
فان قلتم : فإين الاسلام الذى بينت خصائصه فى ما تقدم ؟
وأين « الحزب الاسلامى » الذى فصلت القول فى مقوماته

(٢) نحو أحد عشر جنيها

(١) أى نحو سبعة جنيها

وواجباته؟ وفي أي أرض دُفن تصور الجهاد الحقيقي الذي
 كشفت الغطاء عن وجهه آتفا؟ وما بالناس نجد بلاد المسلمين كلها
 خلوا من هذه الفكرة وذلك التصور الأسمن؟ قلت : الذنب
 ليس بذنبننا والتبعة في ذلك ليست علينا . إنما الذنب ذنب الذين
 حادوا بالمسلمين عن الصراط السوى وهدفهم الحقيقي ، وعلوهم
 بالتعاون والتماثم والسبحات والرياضات ، والذين منوا المسلمين
 بالأباطيل والترهات ، ووعدوهم بطرق للنجاة سهلة تريخهم من
 أهوال الجهاد وشدائد الكفاح ، فأجأوهم الى قبور وزوايا
 ليتوسلوا بها وبرجالها الى الغاية المنشودة من السعادة الأبدية ،
 والتبعة على الذين شغلهم عن أصول الاسلام ومبادئ الكلية
 الشاملة ، وصرفوا أبصارهم الى مسائل من فروع الفقه لا تنفع
 من صدى ولا تسمن من جوع في إحياء قواعد الاسلام ،
 حتى نسوا ما خلقوا لأجله ، وذهلوا عن الغاية السامية التي
 يدعو اليها الاسلام وجعلوها نسيا منسيا . وإن أردت
 الاستزادة من أسباب تقلص ظل الاسلام وضئولة نفوذ
 الحزب الاسلامي اليوم ، فارجع يبصرك الى الأمراء والزعماء

والقواد الذين يظهرون إيمانهم بكتاب الله وبرسوله ^{مؤلفه} ؛
 ولكنه مما يؤسف له أنهم لا يرون من معنى الكتاب العزيز
 الشريعة إلى جهاء بها النبي الأُمي العربي ^{مؤلفه} على أنفسهم غير
 أن يشتركوا في حفلات المولد النبوي تارة وأن يذهبوا تارة
 أخرى بعض من حفاظ القرآن ليقرأوا شريعة أو خدمين في بيوتهم
 ترفيها عن أرواح ذوي قرباهم ؛ وإن سميت بهم أنفسهم ألقوا
 خطبا في تمجيد الاسلام والثناء على تاملهم بما ميثق الشراء اليوم
 على الناس ويكيون لهم الماسح جزافا . أما العمل بهذه الشريعة
 والسعي وراء تنفيذها في العالم فليسوا من ذلك في ورد ولا مسأله
 بل يحسبون أنفسهم كأن الله لم يكلهم بشيء من ذلك . وذلك
 أن نفوسهم غير مستعدة أصلا للتشديد بهذه القيود وتعمل
 أعباء هذه المسؤوليات التي كلف الله بها عباده ، والتي يلتزمها
 الاسلام على الذين يؤمنون به ويدعون اتباعه . فانهم يتقنون
 حياة رخيصة ويتقنون طريقا للإنجاة سهلا .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

2184

401073 51-0000000000

المجلد الثاني

٩١ تسلسل القمع بجذيرة الروضة تايضه ٩٧٣٦٤

منشورات دار العروبة للدعوة الاسلاميه بباكستان

(تقوم بنشرها في مصر لجنة الشباب المسلم)

١ - الدين القيم صدر (ونفدت نسخه)

٢ - نظرية الإسلام السياسية

٣ - منهاج الانقلاب الإسلامى

٤ - الجهاد في سبيل الله

٥ - معضلات الاقتصاد وحلها في الإسلام (تحت الطبع)

٦ - شهادة الحق

٧ - نظام الحياة في الإسلام

٨ - الإسلام والجاهلية

٩ - الإسلام ودعوته

عنواننا بباكستان :

دار العروبة للدعوة الاسلامية

راولپنڈی

(باكستان)

Rawlpindi

(Pskistan)